

دراسة الطفل

من الوجهة النفسية الحديثة

للأستاذ فؤاد طرزي المحامي

—

بعد بحث ونقيب دام حوالي النصف قرن قدمت لنا صورة عن طبيعة سلوك الطفل تختلف كل الاختلاف عن الصورة التي قدمها لنا الباحثون القدماء في ميدان التحليل النفسي . فقد قدم لنا العلماء الحديثون التواعد الأولى التي بنيت عليها الدراسات الجديدة ، وإن النقاط الرئيسية التالية تلخص وجهات النظر الحديثة في ميدان الدراسات العلمية التجريبية ، فلم النفس الحديث يقول :

١ - إن الطفل تركيب عضوي حي نام يتطور على شكل تحولات وتغيرات متناهية في الدقة من الخلية الأولى إلى التكوين العضوي المقدم الذي يؤهل الفرد للعمل وفق مستويات الراشدين . وفي ميدان هذا النمو والتطور يشرح العلماء خصائص الأعمال والتكوينات الجديدة ، وعناصر التغيرات التي تتناول الحجم والشكل والتركيب ، وصفات التغيرات التي تتناول مستوى القماليات وأوجه النشاط . كما أنهم يبحثون أيضاً في المبادئ الأساسية التي تحمل أساليب هذا النمو المستمر وأحواله وهذه الضماليات النشطة .

٢ - إن الطفل وحدة حية مستقلة بنفسها ، تعمل بمفردها عملاً متفلاً إزاء المواقف التي تواجهها . وهذه الخصائص الجزئية التي يتميز بها السلوك تحتاج إلى تأكيدات خاصة . ونشأت العلوم الكيماوية والفيزيولوجية بأن الوحدات المنظمة تستطيع أن تنقسم إلى أجزاء متشابهة ، وهذه الأجزاء تنقسم إلى أجزاء أصغر منها ، وهكذا باستمرار . وبمقتضى هذا فإن القوانين التي تحكم هذه الوحدات المنظمة مستمر في عملها بنوع من الدقة والتماثل ينتج أعمالاً منسجمة متحدة . وبما أنه لا الطفل ولا سلوكه يتجزأ عن هذا التجزؤ نفسه ، فقد وجدت المسويات في ميدان التحليل العلمي للطفل من هذه الناحية ، لأن كل الوسائل النفسية والأساليب

القياسية التي استعملت لتحليل السلوك إلى وحدات نموذجية معينة قد اقتصر على الأعمال التي يقوم بها التركيب العضوي بمجموعه . ولهذا السبب عندما نتكلم عن المذاكرة وعن التحليم وعن الماطفة ، فإننا نتكلم عن أعمال سلوكية مستقلة صنفت وفق قواعد المسائل والتشابه ، لأن هذه المظاهر ليست ظاهرة قائمة بذاتها ، ولكنها جمعت مع بعضها لخصائصها الجوهرية المتأصلة ، فكل نشاط يمكن أن يصنف تحت عدد من المراتب المختلفة ، فإنما تفعل ذلك تسهلاً لأهمتنا العلمية . ولهذا فإن نفس السلوك الواحد يمكن أن يصنف كإحساس أو كدرفة أو كالمطنة أو كذاكرة الخ . وهذه الوحدة في قوى النشاط الطفولي تشمل إجراءات تبدو شاذة ولا تتصل اتصالاً مباشراً بالعلوم البيولوجية

٣ - إن الطفل يعيش في محيط لا يتميز هو نفسه لا بطابع الوحدة ، ولا بمظاهر البساطة ، ويسهل باستمرار مؤثراً على سلوك ونمو الطفل . وإن نماذج الدوافع الفعالة تأتيه من خارج محيطه ، وبعد ذلك - بصورة غير مباشرة - وبواسطة دفع ذاتي فيه ، يختار من بين مظاهر محيطه ما يناسبه ويوافقه . ويظل هذا التبادل المشترك بين الكائن البشري وبين المحيط الاجتماعي الطبيعي مستمراً في جميع الأوقات .. وبما أنه قد يحمل نوع من التثبيات والتوقف في النمو ، فإن صفات من السلوك يتشكل ويتحدد ، وإن النماذج النوعية السلوكية تتطور في ميدان البواعث المتحركة وفي ميدان النظام القائي الخاص . وإن بعض هذه البواعث تصبغ بواعث محركة منتجة بسبب تأثيرها على مجرى النمو بالتجارب العلمية وبالعلاقات الاجتماعية مع الآخرين ، بينما تبقى بواعث غيرها غير ذات تأثير ، لأنها لم تؤثر في هذه العلاقات المتشابكة المتبادلة . وأما لما ذا تصبح بعض البواعث مؤثرة ، وتبقى غيرها غير مؤثرة ، فإن هذه مسألة لم يبت فيها نهائياً في الدراسات النفسية الطفولية .

٤ - إن الطفل يبدى خاصاً لعملية نمو مستمرة متتابعة ، لا ترتد إلى الوراء ولا تقف . فلا يمكن البيئة ولا للعلاقات الطبيعية والاجتماعية أن تظهر مرة ثانية بنفس الشكل الذي ظهرت فيه في مرة سابقة ، وذلك بسبب تجدد النمو وتجدد العلاقات المشتركة المتبادلة . إن السلوك في أية لحظة من اللحظات هو ثمرة تاريخ الطفل وتغيير من باعث مؤثر معاصر .

وعلى ضوء هذه القاعدة ، فإن دراسة الأسباب الفردية والبسيطة يجب أن تستبدل ويستعاض عنها بدراسة البواطن المتجددة ، والملاقات المتبادلة ، والتأثيرات التبادلية المتراكمة .

المشاكل النفسية للطفل :

ينقسم منهج العالم الذى يبحث فى المشاكل النفسية للطفل إلى قسمين رئيسيين مختلفين من ناحية البحث والعمل . فهو بحث أولاً من قواعد عامة ، أو مبادئ تنطبق على نماذج وأشكال كثيرة نعين على فهم السلوك وعلى السيطرة عليه والتكهن بمداها ونتائجها . وفى هذه العملية يتناول بحثه :

(أ) أعمال الكائن الحى الآلية ، أو ما تسمى النوازع الذاتية الأصلية للكائن الحى نفسه التى توجه أعماله توجيهاً مستقلاً عن أى تأثير خاص بسببه شخص معين أو بيئة معينة .

(ب) التأثيرات التى يؤثر بها الكائن الحى على البيئة التى تحيط به ، أو ما تتركه الكائنات الحية من مظاهر خاصة على العالم الخارجى الذى حولها .

(ج) التأثيرات التى تؤثر بها البيئة على الكائن الحى ، ودراسة كيف يمكن تفسير السلوك وتكييفه بتفسير وتكييف البيئة التى ينمو بداخلها الكائن الحى .

وأما القسم الثانى ، فيتناول تفسير وشرح الظواهر ، وهما الأمران اللذان يتمثلان تمثلاً رئيسياً فى عدد من العلوم . فالعلم النفسى يحاول أن يفسر عملية النمو نفسها بنماذج متقاربة ومفهومة ، إذ يشعل عمله أولاً أن يضع القواعد العامة المشتركة بين جميع الأفراد . وفى هذا المجال توجد طائفتان من القواعد :

(أ) قواعد النمو التناسلى أو التكويني المتناضى أو المتعاظم .

(ب) قواعد النمو التناسلى أو التكويني للطول .

ثم يقوم ثانياً بمهمة شرح وتفسير وفهم السلوك الفردى بحثاً عن الوحدة العامة بين أنواع السلوك . وفى هذا المجال يجب التمييز أيضاً بين أمرين :

(أ) ترتيب الأفراد حسب مستواهم .

(ب) شرح حالة الفرد شرحاً يتناوله كوحدة جاسة .

أعمال الطائى الحى الميكانيكية :

فى كل نظام من الأنظمة تنجز فيه الأعمال بمجموعها ومتعددة

نتائج معينة فى مرحلة وزمن معينين يفترض العلم بأن هذا النظام يقوم على مبادئ منطقية ، وأن هذه المبادئ تعمل مستقلة استقلالاً بتفاوت كثرة وقلة عن الجهودات الآلية للكائن الحى ، وعن تأثيرات البيئة التى تحيط بهذا الكائن ، وأن هذه المبادئ تعمل بصورة ميكانيكية مختلفة ومتعددة وفى بيئات مختلفة ، فإذا عرفنا هذه المبادئ فهمنا سلوك الأفراد واستطعنا السيطرة على هذا السلوك ، وإن كنا لم نعرفها فلا نحصل إلا على ما يسمى السلوك غير المفهوم .

هذه هى - بصورة عامة - المبادئ الأولى فى علم النفس ، ومن استعراضها يظهر لنا بأن التجربة أصبحت الأساس الفنى لتنظيم الدوافع والعوامل والسيطرة عليها . لذلك فإن فهمنا يزداد وإنتاجنا يفرز كلما :

١ - رتبت الدراسات بشكل يسمح للدوافع والحوافز بأن تعمل بكل قواها لتجنب الأهمالك بأجزاء صغيرة من العلاقات موضوعة البحث .

٢ - ونظمت الدراسات على أساس اتصال العوامل والحوافز واشتراكها .

٣ - وأعطى اهتمام أكثر سواء عند وضع تصميم التجربة وتنظيم المبادئ ، أو عند المباشرة فى الدرس والبحث ، إلى المبادئ التشابكية وتوافقها مع البيانات الإيضاحية . وذلك بدلا من إشاعة الاضطراب والفوضى فى البحث باستعمال الأساليب التقليدية التى تخضع الكائن الحى لآراء متنوعة بدلا من إخضاعه للطرق البيانية المستعدة من الوقائع والتجارب .

وهناك مسألة أخرى - تجاهلنا فى حقل الدراسات النفسية - مشاكل الطفل - وهى اختلاف قابليات النمو ، واختلاف الأعمار وتأثيرها على الآراء والتجارب ، ثم درجة وطبيعة التأثير بالنسبة لهذه الاختلافات فى الأعمار والقابليات .

تأثير الطائى الحى على البيئة :

يجب أن ينظر إل الطفل فى أية لحظة من اللحظات كنموذج خاص ، أو كنظام تركيبى مشغول فى مواجهة البيئة الخارجية ، وكلما تحرك إلى الأمام مع الزمن ، فإن علاقته بالعالم الخارجى تتحدد

وبواعث بسيطة أسهل من تناول بحث يألف من عناصر متشابهة ومتداخلة . وعلى كل يجب أن لا نفترض بأن جميع المشاكل في هذا المجال تتمركز فقط حول مثل هذه العوامل والبواعث ، إذ الحقيقة أن العامل الفرد ذا التأثير الواحد يعتبر حالة محددة من طرف واحد ، وأن البيئة مع كل تأثيراتها تستبرح حالة محددة من طرف آخر . ولذلك فإن هدفنا النهائي يتناول جميع العلاقات البيئية في جميع درجات الاشتباك والتفرد ، فإن كافة البحوث في هذه الدراسات تنتهي بتعميم يمر عنه بإسلاطات عديدة ، وبفروض تنبؤية ، وبشهادات مهيبة تنطبق على الجماعات والأفراد .

إن مهمة علم النفس في الماضي كانت تنحصر في جمع إنجازات السلوك والرجوع إلى الوراء للبحث عن العوامل السببية .

وهكذا يقارن تحت ظل هذا النوع من الدراسة بين الأطفال الحادقين وغير الحادقين ، وبين الحسودين وغير الحسودين ، وفي هذه الدراسات كذلك يعتبر « النموذج » النتيجة النهائية . وعلى كل فإنه إذا حصل تقدم في ممارتنا عن الطفل ، فإن البيئة يجب أن تصبح ظاهرة مستقلة متطورة ، ويصبح السلوك نشاطاً متحولاً غير مستقل ، وذلك بشكل يمكننا أن نتعرف على السلوك من دراسة البيئة لا التعرف على البيئة من دراسة السلوك . ولكن هناك في هذه الناحية صعوبات عديدة ، فقد قام الاملتان شيرمان وهنرى (١٩٣٣) باختيار خمس يثبات متفاوتة حسب قربها وبعدها من المدينة ، ثم قاما بدراسة ذكاء الأطفال ، وفي النهاية فشلا في الوصول إلى نتائج واضحة قاطنة من وجهة نظر التصميم النلى . ويبدو سبب هذا الفشل إلى حقيقة أن أية بيئة توجد لمدة طويلة من الزمن - تتجرب إخضاع أفرادها إلى نوع من التأثير البيولوجى الانتقائى . ولكن إذا ما ثبتت سلفاً للبيئات التى تختلف اختلافاً جوهرياً فيما بينها ، ثم وزع الأطفال عليها توزيعاً متناسباً يمكن بواسطته السيطرة على العامل البيولوجى الانتقائى ، فإنه يمكن الحصول على نتائج هامة .

وقد أمكن الحصول على نميات عديدة حول تأثير النظام والإدارة على الأطفال من دراسة الأطفال المتأدين ومن شرح حالات البيوت التى يمس منها الأطفال وشرح خصائص جيرانهم ومعارفهم . وعلى كل فإذا أمكن ملاحظة نماذج من البيوت

في جانب منها بانغمالياته الخاصة ، فإن الأطفال يختلفون اختلافاً كبيراً من ناحية الذكاء ، والقابلية الموسيقية ، والقدرة الإنتاجية ، والقابلية الإحساسية ، والأحوال البيئية . فإذا أمكن ترتيب الأساليب حسب ما يمكن قياسه من هذه الخصائص مفردة ومجمعة ، فإنه يمكن فيما بعد تسجيل وتحديد وتعميم الإنجازات الفردية التى لوحظت بدرجات متقاربة .

ولكن هذه الملاحظات جميعها قد أجريت - وهذا مما يؤسف له في قياس الذكاء - مع أنه ليس هناك ما يمنع من توسيع هذه القياسات لتتناول مجالات أخرى غير دراسة الذكاء وقياسه ، إذ أن مواضيع علم النفس الثاقون كنتك التى تناول الفروق الجنسية والعنصرية من الممكن أن تؤدي إلى وضع تسميات ناعمة جداً إذا أمكن تصنيف الجماعات في المراحل الأولى وتبع ذلك دراستهم دراسة شاملة . ومثل هذه الدراسات الآن غير كاملة تماماً لاختلاطها بالتأثيرات الطبيعية الكثيرة المزدهرة .

ولهذا ، ففي هذه الناحية يستعمل الفرد كمنشأ متطور مستقل نام ، أو ينظر إليه كهيئة نفسية يقوم هو نفسه ببنائها .

تأثير البيئة على الأذن الحسى :

يقوم المجتمع عن طريق إرشاد وتدريب الأطفال بتكييف البيئات التى ينمو بداخلها الطفل ، فالعالم بهم بتكييف البيئات تكييفاً تجريبياً مقصوداً لاستكشاف المبادئ الرئيسية والإجراءات العملية التى يمكن استعمالها في تلميم وتدريب الأطفال .

وهنا تجابهنا مواضع كثيرة تتعلق بالأسلوب المتبع الذى يمكن الاستفادة منه في التلميم والتدريب ... كيف يحدد مستوى الناهج ؟ ما هى المواد التى يجب أن تدرس في الجغرافيا مثلاً ؟ وهل الصور المتحركة والصور المرئية تساعد في تحسين نوعية التلميم ؟ إن الدراسات التى تناول تكييف البيئة فتشمل في بعض الأحيان على دراسة العوامل والبواعث الموجهة كل على انفراد ، بينما تشمل في ظروف أخرى على دراسة نماذج معقدة جداً من قوى النشاط . ومن الواضح بأن التصميم التجريبى يألف من تصنيف جماعات من الأطفال كل جماعة تتميز بعامل من العوامل موضوعة البحث ، ويؤخذ بهذه الطريقة ، لأن دراسة عوامل